

محنة الإمام الطبري

اختلاف الفقهاء**

الدكتور عمر موسى باشا

أبو جعفر، محمد بن جرير يزيد بن كثير بن غالب الطبري (١)

"واحد الدهر وفريد كل عصر" (٢)، العالم المشهور، والعلامة المجتهد، والإمام الفقيه، والمفسر المنحوق، والمؤرخ الثبت، و"كان أحد أئمة العلم، يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفة وفضله" (٣).

ولد في (آمل) حاضرة طبرستان الكبرى في آخر سنة أربع وعشرين، أو أول سنة خمس وعشرين ومائتين هجرية (٨٣٩ م)، وقد عُلِّل هذا الخلاف في تحديد مولده بأن العادة عند القدماء بذكر حدث معين مشهور يوافق ذلك التاريخ.

ارتحل الطبري، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وذلك عام ست وثلاثين ومائتين، فقصد الري، وأزمع أمره على زيارة أحمد بن حنبل ليأخذ عنه ويستجيزه، ولكن وفاته حجبت عنه زيارته ولقاءه، وتابع رحلته العلمية إلى حواضر العلم ودوره في العالم الإسلامي، طلباً للمعرفة، وسعياً لتحصيل العلم، بالإضافة إلى الرؤية والدراسة والسماع والاستجازة.

كما قصد في رحلته العلمية حواضر الكوفة والنشام ومصر وغيرها، بيد أنه أثر العودة إلى وطنه بعد مطاقه العلمي المديد، رغبة في الاستقرار ومتابعة التصنيف والتأليف، وإفادة الناس بعلمه واجتهاده، بيد أنه رغب في الإقامة في بغداد حاضرة الخلافة، وقد عرض عليه تولي القضاء، فأباه زهداً وورعاً، كما عرض عليه تولي المظالم، وامتنع عنها تنسكاً وتعقفاً، وذلك خشية من الوقوع في انظلم والجور، وطغيان هوى النفس في تقرير الأحكام الشرعية.

والمعروف عنه أنه كان يرفض أن يقبل من أحد أجراً أو مكافأة، لأنه كان ميسور الحال، إذ كان له مورد ورثته عن أبيه في طبرستان يكفيه ويغنيه وثوباً هكذا عكف على التأليف والتصنيف، لأن له في ذلك أجراً وثوباً في نشر علم ينتفع به الناس، بعد أن اكتملت لديه الأصول الجوهرية في ثقافته الدينية ومعرفته الموسوعية، بالإضافة إلى ثقافته التاريخية.

* - البحث الذي أعد للمشاركة في المؤتمر الدولي للطبري بمناسبة مرور أحد عشر قرناً على وفاة الإمام الطبري بدعوة من وزارة الثقافة والتعليم العالي، وجامعة مازندران في طبرستان في الجمهورية الإسلامية الإيرانية من ١٣ إلى ١٥ أيلول ١٩٨٩م

محنة الطبري

في حياة الإمام الطبري محنتان : المحنة الكبرى، وهي محنة مجلس الجمعة، وذلك حين تألب عليه أعداؤه من بعض المحدثين والحاقدين الذين أثاروا عليه العامة وجماعة من الحنابلة الحاقدين عليه، لأنه كان يرفض الاعتماد على الإمام أحمد بن حنبل فيما يورده في بعض رواياته، لأنه في نظره محدث، وليس بصاحب مذهب متميز بين المذاهب الإسلامية .

ذكر أبو بكر الخطيب أنه توفي " يوم السبت لأربع بقين من شوال سنة عشر وثلاثمائة، ودفن يوم قد الأحد بالغداة في داره برحبة يعقوب، ولم يغبر شيبه " (٤).

والغريب العجيب حقاً، كما أورد يا قوت خبره في معجمه المعروف نقلاً عن غير الخطيب أنه " دفن ليلاً خوفاً من العامة لأنه كأن يتهم بالتشيع ". واستطرد ياقوت قائلاً نقلاً عن الخطيب : " ولم يؤذن به أحد، فاجتمع على جنازته من لا يحصى عددهم إلا الله، وصلي على قبره عدة شهور ليلاً ونهاراً، ورثاه خلق عظيم من أهل الدين والأدب " (٥)

من هؤلاء أبو سعيد بن الأعرابي، فقد أورد من رثائه قوله (٦):

حدثت مقطّع وخطب جليل	دق عن مثله اضطبار الصبور
فام ناعى العلوم اجمع لما	فام ناعى محمد بن جرير

ففي نعي ابن جرير الطبري نعي العلوم كلها جمعاء . ومن الذين رثوه أيضاً صديقه ابن دريد، فقد تمثل فيه علم الدين المرفوع بقوله (٧):

إن المنية لم تتلف به رجلا	بل اتلفت علما للدين منصوبا
كان الزمان به تصفو مشاريه	والان اصبح بالتكدير مقطوبا
كلا وايامه الغر التي جعلت	للعلم نورا وللتقوى محاربا

هذا هو الإمام الطبري علم الدين المنسوب، وهذه هي أيامه الغر التي طواها الموت، فهي

يبدو أن الحاقدين عليه كانوا من جماعة من المحدثين الذين لم يستطيعوا مناظرته، وإنما كان يرذ عليهم وينبئهم إلى ما هو غير صحيح، بالإضافة إلى خصومه من الحنابلة الذين لم يكونوا يستطيعون الوقوف أمامه في محجة المناظرة الجدلية والمناقشة العلنية.

لقد أفلح هؤلاء جميعاً في الإساءة إليه يوم وفاته، فمنعوا أفواج الناس وجموعهم من تشييعه ودفنه في وضح النهار، وهكذا أثر جماعته ومريدوه دفنه في منزله خوفاً عليه من أعدائه فينبشون قبره، وهو ميت بعد محنته الكبرى، وهو حي.

وصف ابن كثير محنة الطبري وما حل به في ساعاته الأخيرة مشيراً إلى أعدائه من عوام الحنابلة، ومن عوام الجهلة الذين رموه بالإلحاد بقوله (٩):

"وذفن في داره، لأن بعض عوام الحنابلة، ورعاعهم، منعوا من دفنه نهاراً، ونسبوه إلى الرفض، ومن الجهلة من رماه بالإلحاد... بل كان أحد أئمة الإسلام علماً وعملاً بكتاب الله وسنة رسوله".

وكان على رأس هؤلاء الحاقدين عليه الفقيه الظاهري أبو بكر محمد بن داود، فقد "كان يتكلم فيه، ويرميه بالعظائم" (١٠).

كانت هذه المحنة الكبرى، محنة الطبري المظلوم نصراً لسلطان العلم والفكر وعرساً أغرّ لحرية العقيدة والرأي، وتديداً بالتعصب المذهبي الأعمى، ولا سيما على هذه الصفوة من آل البيت، ذلك لأنه انتصر لهم، وأزهرهم ووقف في صفهم مدافعاً عنهم، فلقي محنته الأولى التي سوف نعرضها في القسم الثاني من هذا البحث.

هكذا قهر الإمام الطبري أعداءه حياً وميتاً، ولا أعرف، فيما اطلعت عليه، عالماً استمرت الصلاة عليه، على قبره بعد موته هذا المدى الزمني الطويل خلال شهور امتدت عاماً كاملاً تقريباً (١٠) وهذا - بالطبع - أصدق دليل على عمق إيمانه وكمال فضله ومحبة الناس إياه في حياته ووفائهم بعد موته آية براءته، ولسان الخلق أقوال الحق..

لقد رفض الطبري في محنته الأولى أن يُسمح قبيل موته كل إنسان رماه بضلالة وبدعة. قال أبو بكر بن كامل: "حضرت أبا جعفر حين حضرته الوفاة، فسأله أن يجعل كل من عاداه في حل، فقال: كل من عاداني وتكلم في حل، إلا رجلاً رمانني ببدعة"

والمعروف عن الإمام الطبري أنه "كان إذا عرف من إنسان بدعة أبعد وأطرحه". وهذا يوضح الظلم الكبير الذي لحق به من بعض الفقهاء الحاقدين عليه.

والغريب حقاً أن يمنع الحنابلة مريدي الإمام الطبري ومحبيه من الفقهاء والعلماء والشداة من طلبه العلم من الأخذ والرواية عنه. يقول أبو بكر الخطيب: "ولقد ظلمته الحنابلة. قال: الحنابلة تمنع ولا تترك أحداً يسمع عليه" (١١).

الطبري بين آمل وطبرستان

حرصت كل الحرص على وقفة معرفية عند (آمل)، وهي - كما ذكرنا - مسقط رأس الطبري، والمعروف عنها أنها الحاضرة الكبرى لطبرستان، أصل بين الماضي والحاضر لما في ذلك من توشي الفائدة لمعرفة البيئة العلمية التي ساعدت على تكوين الإمام الطبري العظيم.

كان من المفروض أن يكون النسب المكاني، كما هو معروف في التراجم (ابن جرير الآملي ثم

*** التراث العربي ***

(الطبري)، وكما جرت العادة في النسب إلى مكان المولد. ومن المؤكد في نظرنا أن تجريده من مولده (أمل) كان جرياً على عادة اللغويين القدماء للتفريق بين (أمل) طبرستان، و(أمل) الشط، الواقعة قرب جيحون، فاقترنت النسبة إلى (أمل) الثانية على الأملي. أما (أمل) الأولى فقد اقتضت على (الطبري) للتفريق بينهما.

عرف ياقوت (أمل) فضبطها بضم الميم، وذكر أنها اسم مدينة بطبرستان في السهل، لأنها سهل وجبل .. وب (أمل) تعمل السجادات الطبرية والبسط الحسان، وكان بها - أول إسلام أهلها - مسلحة في ألفي رجل، وقد خرج منها كثير من العلماء، لكنهم قلما ينسبون إلى غير طبرستان، فيقال لهم: (الطبري). منهم أبو جعفر بن جرير، صاحب التفسير والتاريخ المشهور، أصله ومولده من (أمل) ... (١٢).

تعجب ياقوت من عدم نسبة الإمام الطبري إلى مكان مولده في (أمل) وذكر أنهم قلما ينسبون إلى غير طبرستان، على الرغم من أنه أشار إلى (أمل) الشط الثانية، وهي مدينة معروفة، نسب إليها عدد من العلماء وهي واقعة في " غربي جيحون، على طريق القاصد إلى بخارى، ويقال لهذه: (أمل زم) و (أمل جيحون)، و (أمل الشط) و(أمل المغازة)، لأن بينها وبين مرو رمالاً صعبة المسالك، ومغازة أشبه بالمهالك، وتسمى أيضاً (آمو) و (آمويه...)

واستطرد ياقوت فذكر أسماء عشرة من العلماء والمحدثين الذين نسبوا إلى (أمل) الشط، وهذا يوضح أهمية هذه البيئة في أمليها من الوجهة الحضارية والبيئة الفكرية.

علق ياقوت على ذلك بقوله: "... وقد أخرجت (أمل) هذه الجماعة من أهل العلم وافرة، وفرق المحدثون بينهم وبين (أمل) طبرستان..."

ولافرق عندنا بين هذين البلدين المعروفين باسم (أمل)، وإنما تهتمنا الإشارة إلى هذا التطور الفكري الفعال في القرن الثالث الهجري في طبرستان سواء أكان ذلك في أمل الأولى وأم أمل الثانية.

ومن حق البحث علينا بعد هذا الحديث عن المدينتين المذكورتين، أن نخص طبرستان نفسها لأهميتها في حياة الإمام الطبري، فقد زارها ياقوت، وأعجب بها أيما إعجاب، وأطال الوقوف عند ذكرها، والتحدث المستفيض عنها، ثم اعتذر لإطالته واستطراذه في ذكرها، فحديثها لديه كان شيقاً، يشعر المرء من خلاله بصدق ولائه لها ومحبة للعلم والعلماء في كل زمان ومكان.

ضبط ياقوت لفظ (طبرستان) بفتح طائه وبائه، وكسر راء ثالثة، وهي مؤلفة من لفظين: (طبر) و(استان). أما معنى (طبر) فهو الذي يشقق الأحطاب وما شاكلها، وهو من أصل فارسي، وربما كان من أصل عربي، فالأصل الثلاثي المجرد (طبر) معروف. يقال: (طبر الرجل)، أي إذا قفز أو اختبأ، ويطلق لفظ (استان) على الناحية أو الموضع، أي ناحية الطبر. و (الطبري) هي النسبة إليها.

مازندران أو طبرستان

وصف يا قوت أيضاً (طبرستان) وصفاً دقيقاً، وذكر أنها " بلدان واسعة كثيرة، يشملها هذا الاسم، خرج من نواحيها من لا يحصى كثرة من أهل العلم والأدب والفقه، والغالب على هذه النواحي الجبال. فمن أعيان بلدانها: (دهستان)، و(جرجان) و(أستراباد)، و(أمل)، وهي قصبته، و(سارية)، وهي مثلها، و(شالوس)، وهي مقاربة لها، وربما عُدَّتْ (جرجان) من (خراسان) إلى غير ذلك من البلدان .

و(طبرستان) في البلاد المعروفة بـ (مازندران)، ولا أدري متى سُمِّيت بـ (مازندران)، فإنه اسم لم نجده في الكتب القديمة، وإنما يسمع من أفواه تلك البلاد، ولا شك أنهما واحد، وهذه البلاد مجاورة لـ (جیلان) و (دیلمان) رأيت أطرافها، وعينت جبالها، وهي كثيرة المياه، متهدلة الأشجار كثيرة الفواكه... وأنا أذكر ما قال العلماء في هذا القطر، وأذكر فتوحه واشتقاقه، ولا بد من احتمالك لفصل فيه تطويل بالفائدة الباردة، فهذا من عندنا مما استفدناه بالمشاهدة والمشافهة، وخذ الآن ما قالوه في كتبهم...." (١٤)

هذا النص على غاية من الأهمية الاجتماعية والفكرية، وذلك لأن يا قوتا يؤكد ما يرويه من فوائد اعتماداً على المنهج العلمي لدى المحدثين من خلال المشاهدة والمشافهة، وقد حرصت على إيراد ما استرعى انتباهي إكمالاً للفائدة المرجوة من هذا البحث عن الطبري وبيئته.

كما نقل ياقوت عن علماء الفرس القدماء أسطورة (طبرستان)، وذلك حين كان في جيوش بعض الأكاسرة خلق كثير من الجناة، فنفوا إلى هذا المكان، وخلص إلى القول: إن لفظ (طبرستان) هو معرب (طبرزنان)، ومعناه الفؤوس أو النساء، كما جاء في هذه الأسطورة الطريفة، وخلص من ذلك كله إلى قوله: "والذي يظهر لي، وهو الحق، ويعضده ما شاهدناه منهم أن أهل تلك الجبال كثير من الحروب، وأكثر أسلحتهم بل كلها الأتبار، حتى إنك قل أن ترى صعلوكاً أو غنياً، إلا وييده الطبر، صغيرهم أو كبيرهم، فكانها لكثرتها فيهم سُمِّيت بذلك، ومعنى (طبرستان) من غير تعريب، موضع الأتبار، والله أعلم..".

ثم استطرد فتحدث عن (طبرستان) مطولاً، وختم ذلك بقصة طائر غريب يُعرف باسم (كمكم)، ويظهر في فصل الربيع.

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الطبري خص موطنه (طبرستان) بكتاب هام اسمه (البصير في معالم الدين)، وقد كتبه وبعث به إلى أهل (طبرستان)، وذكر " فيما وقع بينهم فيه من الخلاف في الاسم والمسمى ... وهو في ثلاثين ورقة (١٥) .

هكذا كانت صلة الطبري ببلده (طبرستان) وثيقة جداً، إذ كانت ترده من آله وأصدقائه هدايا كثيرة، منها الهدية التي بعث بها إلى الوزير مصحوبة برقعة مكتوبة لقبول هدية طريفة في حزمة مغلفة. (١٦)

الطبري البحر الإمام

كان الطبري، بإجماع العلماء القدماء، معروفاً بالذكاء والعلم والاجتهاد، وقد نُعت بـ (البحر الإمام) (١٧). يقول أبو بكر الخطيب: "وما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير" (١٨).

واستطرد أبو بكر قائلاً: "وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عزَّ وجلَّ، بصيراً بالمعاني، فقيهاً بأحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بآيām الناس وأخبارهم، له الكتاب المشهور في (تاريخ الأمم والملوك) وكتاب في (تفسير القرآن) لم يصنف أحد مثله، وكتاب سمّاه (تهذيب الآثار) لم أر سواه في معناه، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، واختيار من أقاويل الفقهاء، وتفرد بمسائل حفظت عنه" (١٨).

أورد ياقوت آثار الطبري معلقاً على بعضها، وقد صنّفها أخيراً تصنيفاً هجائياً (١٩). صديقي المرحوم العلامة الثّبت، تحقيقاً وتوثيقاً وذلك في تقديمه كتابه المعروف (تاريخ الرسل والملوك) أو (تاريخ الأمم والملوك) كما مر معنا، ومن المفيد إيراد بعضها، وهي التالية:

(آداب المناسك)، و(آداب النفوس)، و(اختلاف علماء الأمصار)، و(أحاديث غديرخَمْ)، و(بسيط القول في أحكام شرائع الإسلام)، وقد قدّم له بكتاب سمّاه (مراتب العلماء)، و(البصير في معالم الدين) و(تاريخ الرسل والملوك)، و(تهذيب الآثار) و(جامع البيان في تفسير القرآن) وقد نقله بعض المتأخرين إلى اللغة الفارسية لمنصور بن نوح الساماني، و(الجامع في القراءات)، و(حديث الطير)، و(الخفيف في الفقه)، و(ذيل المذيل)، و(الردّ على الحرقوصية) (٢٠)، و(الردّ على ذي الأسفار) (٢١) و(الردّ على ابن عبد الحكم على مالك)، و(صريح السّنة) (٢٢)، و(طرق الحديث)، و(عبارة الرؤيا)، وقد مات ولم يتمّه، و(العدد والتنزيل)، و(الفضائل) (٢٣)، وهي ثلاثة كتب، و(لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام)، وهو من أهم كتبه، وفيه آراؤه في مذهبه، و(مختصر الفرائض)، و(المسترشد) و(المسند المجرد)، و(الوقف)، و(دلائل النبوة)، و(أمثلة العدول)، وهو من جيّد كتبه التي يعول عليها أهل مدينة السلام.

ثمّة كتب أخرى للطبري، وقد لاحظنا أن بعض ما ذكرناه من آثاره لم يتمّه، ويبدو أن هذه المحنة الكبرى التي حلت به كانت تضايقه وتمنع العلماء والطلبة من حضور مجالسه العلمية، ولا تترك أحداً يستمع إليه، وهذا حقاً هو الإرهاب الفكري الذي قضى على هذا الإمام الكبير.

غدير الفقهاء

ليس غدير الفقهاء اسم كتاب بعينه من كتبه الكثيرة، وإنما هو في حقيقة الأصل إشارة إلى كتابين كانا مصدر محنتين للطبري لا محنة واحدة.

أولهما: كتابه (أحاديث غديرخَمْ)

وثانيهما : كتابه (اختلاف الفقهاء).

ومن المفيد، في هذا البحث، تخصيصهما بالدراسة، لأنهما يوضحان آراء الطبري، ويمثلان شجاعة الطبري في دفاعه المستميت عن الحق، وإيمانه بالحرية الفكرية في العقيدة والمذهب والرأي في منظور الشرع ومنطقه الإيمان في المأثور المنقول والقياس المشروع.

كان مؤمناً كل الإيمان بالعقيدة المطهرة والملة السمحة التي جاءت رحمة للعالمين أجمعين.

ومن هذا المنطق كان الإمام الطبري يدحض آراء المتعصبين من بعض العلماء الذين يحاولون طمس الحقائق الدينية بسبب الخلافات المذهبية والنزعات الدينية التي لا تمت إلى الحقيقة بصلة، فلا غرابة بعد هذا كله إن رأينا أن هذين الكتائين كانا مصدر محتئين : محنة في حياته كما رأينا ومحنة في مماته، لأنه وهو الإمام المؤمن كان يؤمن بالتسامح الديني وكان يقدر حرية الفكر المذهبي ضمن حدود الشرع الحنيف والإسلام السمح.

أحاديث غدير خم

من المفيد أن نشير بادئ ذي بدء إلى (خم) وإلى (غدير خم) وذلك لذكر (أحاديث غدير خم). والمعروف أن (خم) بضم الخاء وتشديد الميم، وهو " واد بين مكة والمدينة، عند الجحفة به غدير، عنده خطب رسول الله، صلى الله عليه وسلم " كما يقول الحازمي (٤). كما ذكر ياقوت نقلاً عن صاحب المشارق " أن خمًا اسم غيضة هناك، وبها غدير نُسب إليها . قال: (وخم) موضع تصب فيه عين بين الغدير والعين، وبينهما مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم" (٢٥).

وذكر الفيروزبادي ذلك في قوله: 'خم، بالضم، وواد، وبئر حفرها عبد شمس بن عبد مناف بمكة . و(غديرخم) موضع، على ثلاثة أميال، بالجحفة بين الحرمين، أو (خم) اسم غيضة هناك، بها غدير ماء" (٢٦).

وذكر الحميري أيضاً (غدير خم) في (الروض المعطار) بقوله: " والجحفة ميقات أهل الشام ومصر والمغرب، وبين (الجحفة) و(عسفان) غديرخم ... وروى أن النبي، صلى الله عليه وسلم، عرس في (غدير خم) وقال هناك: (من كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم والي من والاه، وعاد من عاداه) وذلك من منصرفه من حجة الوداع... (٢٧).

دافع الطبري عن الصحابي الجليل الخليفة علي بن أبي طالب (ع) في بعض المناسبات والمواقف التي ورد ذكره فيها، كما دافع بشكل عام عن آل البيت، ودافع عن حقوقهم بكل صراحة وجرأة، ومما لاشك فيه أن ذوي السلطان كانوا يضطهدونهم ويتعصبون عليهم، ويحرّضون بعض العلماء للتقص من قدرهم، بيد أن الجبهة من العلماء المنصفين العدول ردوا عليهم هذه المطاعن المغرضة، وكان الطبري القدوة المثل في الدفاع عن حقهم وتثبيت أركانهم، ودحض مفتريات هؤلاء

الذين نصبوا أنفسهم لشتم آل البيت تقريباً وزلفى لذوي السلطان، وتقرباً من الذين بيدهم مقاليد الأمور والحكم .

كان الطبري يعتمد كل الاعتماد، في توثيق المأثور، على الروايات المسندة إلى الصحابة عامة وآل البيت خاصة، فابتدأ بتصنيف كتابه (تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن الرسول، صلى الله عليه وسلم من الأخبار) (٢٨)، وقد استهله بما رواه أبو بكر الصديق (ر) مما صحَّ عنده بسند، وتكلم على كل حديث منه بعلمه وطرقه ... فتَمَّ منه سند العشرة وأهل البيت والموالي... (٢٩).

عُدَّ هذا الكتاب الهامَّ " من عجائب كتبه، يَبْدُ أنه قد مات قبل إتمامه، كما ذكر ياقوت أنه " كتاب يتعذر على العلماء عمل مثله، ويصعب عليهم تَمَّتْه " (٣٠).

إن ما يهَمُّنا من الإشارة هنا إلى هذا الكتاب أن الطبري كان يعتمد ويوثق روايات آل البيت، لأنه كان يحترمهم ويحبهم ويثق بما يروى عنهم، وآل البيت أدري بما يروى عنهم وبمن يروي عنهم، ومن هذا المنطلق كان يدافع ويذود عن حقوقهم، وماتَّقَصَّ أحد الإمام علياً (ع) أو بعض آله، إلا وقد تصدَّى يدافع عنهم ويذود عن حياضهم النبوية .

قال ابن عساكر : " ولَمَّا بلغه أن أبا بكر بن أبي داود السجستاني تكلم في حديث غديرخم، عمل كتاب (الفضائل)، فبدأ بفضل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وتكلم على تصحيح حديث غديرخم، وأتى من فضائل أمير المؤمنين علي بما انتهى إليه، ولم يَتَمَّ الكتاب " (٣١)

وقال ياقوت: " وكان إذا عرف من إنسان بدعةً أبعدهُ وأطرحهُ وكان قد قال بعض الشيوخ ببغداد بتكذيب غديرخم، وقال : إن علي بن أبي طالب كان باليمن في الوقت الذي كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بغديرخم، فقال

تَمَّ مَرَرْنَا بِغَدِيرْخَمِ كَمَ فَاثَلٌ فِيهِ بِزُورِ جَم

على علي والنبي الامي

وبلغ أبا جعفر (الطبري) ذلك، فابتدأ بالكلام على فضائل علي بن أبي طالب، وذكر طرق حديث خم فكثر الناس لاستماع ذلك " (٣٢).

هذا يؤكد لنا شجاعة الطبري في الدفاع عن الحق والتفاف الناس حوله للاستماع، وهذا مما ندره من الحاقدين والشاننين من بعض العلماء المعاصرين.

يضاف إلى ذلك أن الذهبي قد روى الحديث نفسه والحدث ذاته، بقوله: قيل لابن جرير: إن أبابكر بن أبي داود يُمَلِّي في مناقب علي، فقال: تكبيرة من حارس، وقد وقع بين ابن جرير وبين ابن أبي داود، وكان كل منهما لا ينصف الآخر، وكانت الحنابلة حزب أبي بكر بن أبي داود، فكثروا وشنعوا على ابن جرير، وناله أذى، ولزم بيته، نعوذ بالله من الهوى (٣٣)

ومن هذا الخلاف الشخصي بين هذين الإمامين كان جماعة الحنابلة يهاجمون الطبري، ويبدو

أن المعاصرة حجاب وحجاز في كل زمان ومكان، ونكرر دعاء الذهبي: (نعوذ بالله من الهوى) فيما نقول ونفعل.

نعود إلى ياقوت ثانية لمتابعة دقائق هذا الخبر في قوله: "... واجمع قوم من الروافض ممن بسط لسانه بما لا يصلح في الصحابة، رضي الله عنهم، فابتدأ بفضائل أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، ثم سأله العباسيون في فضائل، فابتدأ بخطبة حسنة، وأملى بعضه، وقطع جميع الإملاء قبل موته" (٣٤).....

كان موضوع حديث خُم، وتأكيده، ودفاعه، وتوثيق رواياته المسند، شغله الشاغل، ولاسيما أنه الحافظ الثقة، والعلامة الثابت، وهذا كله كان مصدر القلق لدى هؤلاء المتعصبين الذين قد بهرتهم، فطبقت الآفاق، واجتمع عليه الناس من كل حذب وصوب يستميجونه علمه سمعاً ورواية، وإملاء وإجازة.

لم تظهر كتبه في فضائل الصحابة، ما عدا كتابه في فضائل عليّ (ع)، إذ ابتدأها به، ذلك لأن الطبري لم يتم كتب الفضائل اللاحقة، عن أبي بكر وعمر والعباس، كما يقول ياقوت، وإنما بقي من الكتاب الأول في فضائل عليّ (ع) أحاديث غدير خُم، وقد رآه الناس مستقلاً عن كتب الفضائل، ومما هو جدير بالذكر أنه قد أملى فضائل أبي بكر وعمر في طبرستان لكنه "خاف أن يجري عليه ما يكرهه فخرج منها من أجل ذلك" (٣٥)

في منتخب (تاريخ البرزالي) إشارة هامة إلى كتابه (أحاديث غدير خُم) بقوله: "قلت: وقد رأيت له كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خُم في مجلدين ضخمين" (٣٦).

لم يصلنا هذا الكتاب، على الرغم من شهرته الواسعة، كما تكرر ذكره في كتب التراجم المعتمدة، ويتضح من تواتر رواياته في كتب الأصول وغيرها، أن الطبري كان على حق حين خصّ أحاديث الغدير بكتاب مستقل، وضبطها صحة وتواتراً، وتوثيقاً وتحقيقاً في الرواية والدراسة. وجدير بالذكر أن نشير إلى هذا العمل العلمي الكبير الذي أنجزه العلامة الأميني النجفي بوضع موسوعته الكبرى المعروفة بعنوان (الغدير في الكتاب والسنة والأدب) وذلك تعويضاً عن هذا الكتاب المفقود، وحقق بذلك منه المقصود.

اختلاف الفقهاء

كان الطبري عالماً متفرداً مجتهداً، وله مذهب في الفقه اختاره لنفسه وله في ذلك عدة كتب (٣٧)، ولم يكن ليعتمد على النقل فحسب، وإنما كان يعتمد على العقل فيعمد إلى الاجتهاد، لأنه كان يتمتع بشخصية فريدة اتسمت بالموضوعية والعلمية والبعد عن التعصب الأعمى الذي كان معروفاً عند بعض العلماء في القرن الثالث الهجري في العصر العباسي، وسوف يتضح لنا موقفه الموضوعي في بعض المسائل، ولاسيما في قضية هامة جداً أوردها في كتابيه الهامين المشهورين هما: (لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام) و(اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام)

وكان هذان الكتابان عامة، والثاني منهما خاصة مصدر محنة الطبري كما أطلق الطبري على هذا الكتاب الأخير اسم (اختلاف الفقهاء) (٣٨) وبذلك اشتهر بين الناس، ولا بد من الإشارة بادئ الأمر إلى بعض البواعث الجوهرية التي حثت المؤلف على تصنيفه، فقد ذكر أن الطبري أنشأه وبعث به جواباً لأحمد ابن عيسى الذي سأله ذلك، وطلب منه معرفة سبب تأليفه كتابه السابق الأول.

أورد ياقوت خبر هذا الكتاب في قوله: "وكان أول ما عمل هذا الكتاب - على ما سمعته يقول - وقد سأله عن ذلك أبو عبد الله أحمد بن عيسى الرازي: إنما يحمله ليتذكر به أقوال من يناظره، ثم انتشر، وطلب منه، فقرأه على أصحابه" (٣٩)

يؤكد هذا النص المستشهد به أهمية هذا الكتاب الذي انتشر بين الناس، وطلب منه ليطالعوا على آرائه ودقائق نظراته في قضايا ذات أهمية في فهم أحكام شرائع الإسلام، ومن المفيد أن نورد، وقد استشهد به ياقوت في معرض تعداد آثاره، وعلق عليه بقوله "ومنها كتابه المشهور بالفضل، شرقاً وغرباً، والمسمى بـ (كتاب اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام) قصد به إلى ذكر أقوال الفقهاء، وهم: (مالك بن أنس) فقيه أهل المدينة بروائتين،

(و) عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي) فقيه أهل الشام، بروائتين، ثم (محمد بن إدريس الشافعي) ما حدث به الربيع بن سليمان عنه، ثم من أهل الكوفة (أبو حنيفة النعمان بن ثابت)، و(أبو يوسف يعقوب بن محمد الأنصاري)، و(أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني) مولى لهم، ثم (إبراهيم بن خالد أبو نصر الكلبي). وقد كان أولاً ذكر في كتابه بعض أهل النظر، وهو (عبد الرحمن بن كيسان) لأنه كان في الوقت الذي عمله، ما كان يتفقه على مذهبه، فلما طال الزمان به، وفقه أصحابه بسببه أسقطه من كتابه" (٤٠)

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الإمام الطبري قد قام برحلة علمية إلى الدينور ماضياً إلى طبرستان، كما نقل لنا عبد العزيز بن هارون قوله: "ما يحسن بنا أن نجتمع ولا نتذكر". وقد تمت الاجتماعات مشفوعة بالمطارحات والمناظرات، منها مثلاً مذاكرة عبد الله بن حمدان، ولقاؤه مع أبي بكر بن سهل الدينوري، وحضور الكسائي وغيرهما، وقد قال في ختام مناظرة ابن حمدان في المسند: "هذا خطأ من جهة كذا، ومثل لا يذاكر به! فيخجل وينقطع".

كذلك كان الإمام الطبري واقفاً من نفسه فيما يقوله ويرويه ويرتثيه، كما يتضح لنا أيضاً من خلال هذه الرحلة العلمية فيما يرويه ياقوت عن هذه المطارحات والمناظرات وما تخلفه من الشحنة، وما يتبع ذلك من البغضاء، فكثير الحاسدون والحاقدون والموتورون من بعض الرواة والمحدثين والفقهاء والحنابلة بشكل خاص.

يقول ياقوت: "فلما قدم إلى بغداد من طبرستان، بعد رجوعه إليها تعصب عليه أبو عبد الله الجصاص، وجعفر بن عرفة، والبياضى (٤١)، وقصده الحنابلة، فسألوه عن أحمد بن حنبل، في الجامع يوم الجمعة، وعن حديث الجلوس على العرش، فقال أبو جعفر: (أما أحمد بن حنبل فلا يُعدُّ خلفه)، فقالوا له: (فقد ذكره العلماء في الاختلاف)، فقال: (ما رأيته روي عنه، ولا رأيته له أصحاباً

يُعول عليهم . وأما حديث العرش فُمحال ثم انشد:

سبحان من ليس له انيس ولاله على عرشه جليس

فلما سمع ذلك الحنابلة منه، وأصحاب الحديث، وثبوا ورموه بمحابرهم وقيل : كانت ألوفاً ن
فقام أبو جعفر نفسه، ودخل داره، فرموا داره بالحجارة، حتى صار على بابيه كالتلّ العظيم .

وركب (نازوك) صاحب الشرطة في عشرات ألوف من الجند ن يمنع عنه العامة، ووقف
على بابيه يوماً إلى الليل، ولأمر برفع الحجارة عنه، قد كان كتب على بابيه :

سبحان من ليس له انيس ولاله على عرشه جليس

فأمر (نازوك) بمحو ذلك، وكتب مكانه بعض أصحاب الحديث:

لاحمد منزل - لا تشك - عال إذا وافى إلى الرحمن وافد
فيدنيه ويقعده كريم على رغم لهم في انف حاسد
على عرش يغلفه بطيب على الأكباد من باغ وعائد
له هذا المقام الفرد حقاً كذاك رواه ليت عن مجاهد

فخلا في داره، وعمل كتابه المشهور في الاعتذار إليهم، وذكر مذهبه واعتقاده، وخرج من
ظن فيه غير ذلك، وقرأ الكتاب عليهم، وفضل أحمد بن حنبل، وذكر مذهبه وتصويب اعتقاده، ولم
يزل في ذكره إلى أن مات، ولم يخرج كتابه في الاختلاف حتى مات، فوجدوه مدفوناً في التراب،
فأخرجوه ونسخوه، أعني (اختلاف الفقهاء)... (٤٢).

هذا النص الهام الذي أورده ياقوت على غاية من الأهمية في تاريخنا الفكري والديني، فهو
يوضح لنا أموراً خلافية كثيرة ذات أبعاد كبرى، ودلالات هامة جداً.

أولها: اضطهاد الحرية المذهبية، وهذا مؤثر خطير في قدسية الحياة الدينية والفكرية، مما
جعله يفضل اعتزال مجالس العلم، والابتعاد عن الاجتماع بالناس، وأثر الخلود إلى الخلوة في داره،
ودفن آثاره في التراب حتى وافته منيته، فأخرجها الناس بعد موته، ومنها كتابه (اختلاف الفقهاء)،
كان هذا كله من تدبير فئة متطرفة من الحنابلة.

ثانيها: موقفه من الإمام أحمد بن حنبل، ورأيه فيه أنه لا علاقة له بأصول الاختلاف، لأنه
محدث، وليس بصاحب مذهب معين في الفقه الإسلامي.

ثالثها: موقف المحدثين منه، ومن آرائه في الاختلاف، ولاسيما أنه "كان له قدم في علم
الجدل، يدل على ذلك مناقضاته في كتبه على المعارضين لمعاني ما أتى به..." (٤٣)

التراث العربي

يضاف إلى ذلك كله - كما يقول ياقوت - أنه " كان راجحاً في علوم القرآن والقراءات، وعلم التاريخ من الرسل والخلفاء والملوك، واختلاف الفقهاء مع الرواية ... " (٤٤).

كان الطبري في نظر معظم العلماء والناس إماماً مجتهداً عذلاً، أوتي من سعة العلم، وصواب الرأي، ونفاذ الرأي، ولا أشك أن أحداً من أعدائه أو أصدقائه من ينكر عليه عبقريته في مؤلفاته عامة ومؤلفيه الموسوعيين المشهورين في تفسيره وتاريخه وغيرهما خاصة أو ينتقصهما، ويكفي أن نطلع على ما كتبه من ترجموا له وتحدثوا عن حياته وآثاره وآرائه.

هذه العقلية الاجتهادية المتفتحة في فهم الأحكام الدينية والفقهية وتدبرها، وثورته على الجمود الفكري والانغلاق العقلي، ذلك لأنه كان يعتمد على الاجتهاد والعقل فيما يوافق العقيدة والنص والنقل، وهذا المنهج جعل بعض الفقهاء من الحنابلة وبعض المحدثين يترصدونه في مجالسه العلمية، ويوقعون به، ويوغرون عليه العامة من الناس، فيهاجمونه من مجلسه العلمي، ويرجمون داره.

يختلف الفقهاء والعلماء في كل زمان ومكان، واختلاف الأئمة رحمة كما هو معروف، والغريب حقاً أن يؤدي هذا الخلاف في وجهات النظر إلى استئثار العامة، ويحتاج صاحب الشرطة نازوك إلى عشرات الألوف من الجند ليحامي هذا الإمام العالم وهذا الإنسان المؤمن .

وآخر هذه الأمور أن هذا النص يؤكد أن الإمام الطبري كان مسامحاً لا يفرق بين المذاهب الإسلامية وطوائفها، فقد انتصر لعلي بن أبي طالب (ع) حين تعرض بعضهم - كما رأينا - لأحاديث الغدير، وعلل بعضهم ذلك لتشييعه وانتصاره لآل البيت.

وصفه الذهبي بأنه " ثقة صادق، فيه تشييع يسير وموالة لاتضر... " (٤٥) وخلص إلى الدفاع عنه بقوله : " .. بل إن ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وما ندعي عصمته من الخطأ، ولا يحل أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإنه كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأني فيه، لاسيما في مثل إمام كبير.. " (٤٦).

علق ابن حجر على الذهبي بقوله: " وإنما نبر بالتشييع لأنه صحح حديث غدير خ (٤٨) ".

يؤكد هذا الخبر أنه قد عدّ من الشيعة لموقفه من علي (ع) وتصحيحه حديث غدير خ. ومن هذا المنطلق عدّه أبو حيان من الشيعة الإمامية حين أورد كلام السليمان في الكلام على (الصراط) بالصاد في أوائل تفسيره بقوله: " وقال أبو جعفر الطبري، وهو من أئمة الإمامية (الصراط) بالصاد، لغة قريش إلى آخر المسألة (٤٩) ".

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الطبري كان يدافع في مجالسه العلمية عن الإمام علي (ع)، وقد أخرج ابن عساكر عن روى عن الطبري سماعاً في قوله: " .. وجرى ذكر علي (ع) ... " والسؤال المتعلق بإمامتي أبي بكر وعمر (ر) وموقفه من ذلك في مجلسه (٥٠)

يضاف إلى ذلك كله أن الطبري أورد ما يتعلق بغدير خ في كتاب مستقل، وهو في مجلدين ضخمين كما رواه البرزالي، ولانعرف عن وجود هذا الكتاب أي خبر، وربما كان من جملة كتبه

المفقودة .

هذه قصة كتاب الطبري المدفون في القديم، وقدنوهنا في مطلع الكلام بأهمية الكتاب المذكور، وقد نشره المستشرق (كرن) في العصر الحديث، فأخرجه إخراجاً سليماً، وذكر أنه استعان بمشورة بعض العلماء المصريين الأفاضل، ونوه كثيراً بناظر المكتبة الخديوية الأستاذ (موريتس)، والطريف أنه أرخ بحساب الجمل تاريخ طبعه (جلبوا يا طالبى تاريخه) أي سنة (١٣٢٠ هـ)، وشفعه بالتأريخ الميلادي، على غير ماهي العادة في كتب التراث العربي والإسلامي بقوله بعد ذلك : (هاك انتهى طبع اختلاف الفقهاء) أي سنة (١٩٠٢ م).

الكرسيّ والعرش والمقام المحمود

أفاض ابن جرير الطبري في التحدث عن روايات الكرسيّ التي وردت مرة واحدة في سورة البقرة في آية الكرسيّ: (.... وسع كرسيه السموات والأرض.....)(٥١).

وفي التفسير : قيل : أحاط علمه بهما، وقيل : ملكه، وقيل الكرسيّ نفسه مشتمل عليهما بعظمته لحديث: (ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس)...

وآية الكرسيّ المذكورة معروفة بفضائلها في القرآن والذكر والدعاء. روي عن الحسن البصريّ أنه كان يقول: "الكرسيّ هو العرش، والعرش أكبر منه، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار . وعن أبي ذر أنه قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول : (ما الكرسيّ في العرش إلا كحلقه من حديد ألقيت بين ظهرائي فلاة من الأرض)... وعن ابن عباس أنه قال: (علمه)، وقال آخرون : "الكرسيّ موضع القدمين" وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: "كرسيه موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره إلا الله، عز وجل". وقال السديّ: "الكرسيّ تحت العرش". ذكر الكرسيّ الإلهي في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة البقرة، كما ذكرنا، في آية الكرسيّ المعروفة ذات الفضائل الكبرى، كما ورد ذكر كرسي سليمان (..... وألقينا على كرسيه جسدا.....) (٥٢)

أما العرش الإلهي فقد تكرر ذكره إحدى وعشرين مرة، ما عدا العرش البشريّ فقد تكرر عرش ملكة سبأ (بليقيس) وعرش النبيّ (يوسف) مرة واحدة، وهي بمعنى سرير الملك.

تكمن محنة الطبري في موقفه وفهمه المصطلح القرآنيّ (المقام المحمود) الوارد في سورة (الإسراء في قوله تعالى: (ومن الليل فتهجد به نافلة لك، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً).....)(٥٣)

سئل الطبري في مجلس الجمعة عن (المقام المحمود) الوارد في هذه الآية فأجاب عن ذلك بقوله : "وأما حديث العرش فمحال..."

لقد خالف في جوابه هذا ما أورده في تفسيره الكبير، ولا بد لنا من بحث هذا الموضوع الخطير بشكل دقيق نظراً لأهمية ذلك في هذه المحنة الكبرى التي حلت بالطبري من بعض الحنابلة

❖❖❖ التراث العربي ❖❖❖

والمحدثين، ومن تبعهم من عامة الناس و الساططين.

شرح الطبري القسم الأول من هذه الآية بقوله:

" يقول، تعالى ذكره، لنبيّه محمد، صلّى الله عليه وسلّم : ومن الليل فاسهر بعد نومة، يا محمّد ، بالقرآن نافلة لك خالصة دون أمتك".

واستطرد الطبري فتحدث عن معنى (التّهجد)، وفسره بالتيقظ والسهر بعد نومة من الليل، وفرّق بين هذا اللفظ والوجود، وهو النوم نفسه، واستشهد بشواهد من شعر الحطيئة وغيره ، وخلص بعد هذا كله ليقول : "وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أصل التأويل" (٥٤)

هكذا أكّد الطبري في تفسيره بما رواه من أحاديث عن علقمة، والأسود، وعن عبد الرحمن بن الأسود، وعن علقمة والأسود أيضاً بمثله ، وعن علقمة، وعن الحسن، وعن الحجاج بن عمرو، بتواتر مختلف ليؤكد أن " التّهجد بعد نومة"، أو " بعد النوم"، أو " بعد رقدة" (٥٥).

ثم انتقل إلى تفسير قوله تعالى (نافلة لك) فبدأ بتفسيره كما يعتقد، بقوله : "يقول : نفلًا لك عن فرائضك التي فرضتها عليك" (٥٦).

واستطرد الطبري بعد ذلك، فذكر اختلاف المفسرين، وجعلهم في قسمين:

أما القسم الأول: فيرى تفسيره بقوله: " واختلاف في المعنى الذي من أجله خُصّ بذلك رسول الله (ص)، مع كون صلاة كل مصلٍّ بعد هجوده، إذا كان قبل هجوده قد كان أدى فرائضه (نافلة) نفلًا إذ كانت غير واجبة عليه، فقال بعضهم : معنى خصوصه بذلك، هو أنها كانت فريضة عليه، وهي لغيره تطوّع . وقيل له: أقمها نافلة لك، أي فضلاً لك من الفرائض التي فرضتها عليك كما فرضت على غيرك ..".

استشهد الطبري بعد هذا الحديث المستفيض بقول ابن عباس: " يعني بالنافلة أنها للنبي (ص) خاصة، أمر بقيام الليل، وكتب عليه".

وأما القسم الثاني من المفسرين لأوائل هذه الآية، ويبدو أنه كان غير مطمئن لما ورد في تفسيرها، ومن عادته في تفسيره أنه كان يقدم الأصوب، ثم يذكر الأضعف، أو ما كان موضع الخلاف في التفسير.

يقول الطبري: "وقال آخرون :بل قيل ذلك له، عليه السلام، لأنه لم يكن فعله ذلك يكفر عنه شيئاً من الذنوب، لأن الله تعالى، كان قد غفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، فكان له نافلة فضل، فأما غيره فهو له كفارة، وليس له هو نافلة" (٥٨).

أكّد الطبري رأي من قال بذلك نقلاً عن مجاهد بقوله: " قال: النافلة للنبي (ص) خاصة، من أجل أنه لا يعمل ذلك في كفارة الذنوب، فهي نوافل وزيادة، والناس يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها، فليست للناس نوافل" (٥٩).

يقارن الطبري بين القولين : قول ابن عباس وقول مجاهد وانتصر منحازاً للرأي الأول الذي أخذ به وتبناه، ثم ناقش رأي مجاهد، وعلق عليه شاكاً في صحته بقوله الفصل: " وأولى القولين بالصواب في ذلك القول الذي ذكرناه عن ابن عباس" (٦٠).

لقد علل الطبري صواب رأيه في التفضيل بقوله: " وذلك أن رسول الله (ص) كان الله تعالى قد خصه بما فرض عليه من قيام الليل دون سائر أمته. فأما ما ذكر عن مجاهد في ذلك فقول لا معنى له، لأن رسول الله (ص) فيما ذكر عنه أكثر ما كان استغفاراً لذنوبه بعد نزول قوله تعالى:

(ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)، وذلك أن هذه السورة أنزلت عليه بعد منصرفه من الحديبية ، وأنزل عليه (إذا جاء نصر الله والفتح) عام قبض، وقيل له فيها : (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً)، فكان يُعدُّ له (ص) في المجلس الواحد استغفار مائة مرة، ومعلوم أن الله لم يأمره أن يستغفر إلا لما يُغفر باستغفاره ذلك، فبيّن إذا وجه فساد ما قاله مجاهد" (٦١)

ولم يكتف الطبري بهذا الرد وهذا القول الفصل، وإنما ختمه بهذين الحديثين:

أولهما : مروي عن أبي أسامة يقول فيه: " إنما النافلة للنبي (ص) خاصة "

وثانيهما : مروي عن قتادة : "... (نافلة لك) قال: : تطوعاً وفضيلة لك " (٦٢).

حرصت على إيراد تفسير الأول لأوضح أن الطبري كان يختلف مع مجاهد في التفسير والرأي، وذكر بصريح العبارة فساد ما قاله، وهذا التقديم يوضح أشياء خطيرة، وهي الخلاف الذي أورده الطبري في القسم الثاني من آية المقام المحمود.

ابتدأ الطبري كعادته بتفسيره الشخصي لتتمة قوله المكمل لما بدأنا به في قوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً). وقد أطلال الوقوف عند لفظ (عسى)، وذكر أنها من الله واجبة، وأن (عسى) و(لعل) في الاستخدام القرآني " من الله واجبة" (٦٣)

وانتقل الطبري بعد ذلك فأعطى التفسير في الشرح العام بقوله:

" وتأويل الكلام : أقم الصلاة المفروضة يا محمد، في هذه الأوقات التي أمرتك بإقامتها فيها، ومن الليل فتهجد فرضاً فرضته عليك، لعل ربك أن يبعثك يوم القيامة مقاماً تقوم فيه محموداً تحمده، وتغبط فيه، ثم اختلف أهل التأويل في معنى ذلك المقام المحمود" (٦٤) . وهكذا صنف الطبري هذا الاختلاف في التأويل في تفسير المقام المحمود ضمن مذهبين:

المذهب الأول:، وهو المذهب الذي أقره جمهور أهل العلم وهم الأكثرون : " المقام المحمود... ذلك المقام الذي هو يقومه، صلى الله عليه وسلم، يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم...." (٦٥)

وقد أورد الطبري كعادته بعد ذلك ذكر أصحاب هذا المذهب رواية عن حذيفة، وابن عباس، وعبد الله، والحسن، ومجاهد، و سلمان، و قتادة، وقد تكررت رواية بعض المحدثين باختلاف سند

الرواية، كما هو الأمر عند حذيفة ومجاهد وغيرهما.

المذهب الثاني: وهو المذهب الذي ورد في رواية آخرين، وقد اقتصر فيه الطبري على ذكر رواية ليث عن مجاهد كما وردت، وكما أوردها الطبري بقوله: (وقال آخرون: بل ذلك المقام المحمود الذي وعد الله به نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يبعثه إياه، هو أن يقاعده منه على عرشه" ثم استطرد الطبري فذكر من قال ذلك: "حدثنا عباد بن يعقوب الأسدي قال: حدثنا ابن فضل عن ليث عن مجاهد في قوله: (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) قال: يجلسه معه على عرشه" (٦٦)

ناقش الطبري هذين المذهبين في التفسير والتأويل، ورجح الصواب في نظره، وشفع رأيه بما يؤكد رجحانه، وقد اعتمد على ما أورده في تفسيره بما يتعلق بالكرسي والعرش، وهل الكرسي هو العرش نفسه، أم هو علم الله وملكه وسلطانه؟!

يقول معلقاً: "وأولى القولين في ذلك بالصواب ما صح به الخبر، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) سئل عنها، قال: هي الشفاعة" (٦٧).

وتابع الطبري ذكر جماعة من المحدثين الذين يؤكدون هذا المذهب نقلاً عن كعب بن مالك، وعبد الله بن عمر، وابن مسعود، وعلي بن الحسين، واختتم ذكرهم بما أورده في رواية ثانية منقولة عن كعب بن مالك في ذات المعنى، وهي "أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (يُحشر الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتي على تلّ، فيكسوني ربي عز وجلّ، حلة خضراء، ثم يؤذن لي، فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك (المقام المحمود)..." (٦٨).

لم يكتف الطبري بهذا التوثيق كلّ لمفهوم (المقام المحمود)، وإنما تدبّر أمر جماعة المذهب الثاني، أي جماعة مجاهد، وناقش آراءها، بكلّ موضوعية، في ثلاث فرق، ووضّح بعمق آراء كل فرقة على حدة، وارتأى أن ما ذكره مجاهد غير مرفوض وغير مدفوع صحته، لا من جهة خير، ولا نظر، وذلك لأنه لاخبر عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا عن أحد من أصحابه، ولا عن التابعين بإحالة ذلك. فأما من جهة النظر فإن جميع من ينتحل الإسلام إنما اختلفوا في معنى ذلك على أوجه ثلاثة" (٦٩).

ومما يلفت النظر حقاً، في هذا الباب، أن الطبري أورد هذه الوجوه الثلاثة بكل أمانة وموضوعية في الفرق الثلاث التالية:

رأي الفرقة الأولى:

تعتقد هذا الفرقة أن الله عز وجلّ، بآن من خلقه، كان قبل خلقه الأشياء، ثم خلق الأشياء فلم يماسّها، وهو كما لم يزل، غير أن الأشياء، التي خلفها، إذ لم يكن هو لها مماسّاً، وجب أن يكون لها مبايناً، إذ لأفعال للأشياء، إلا وهو مماسّ للأجسام أو مباين لها.

قالوا : فإذا كان ذلك كذلك، وكان الله، عزّ وجلّ، فاعل الأشياء ولم يُجزّ، في قولهم، انه يُوصف بأنه مماسّ للأشياء، وجب بزعمهم أنه لها مباين . فعلى مذهب هؤلاء سواء أقعدّ محمداً على عرشه، أو على الأرض، إذ كان من قولهم : إن بينونته من عرشه، وبينونته من أرضه بمعنى واحد، في أنه بائن منهما كليهما غير مماسّ لواحد منهما" (٧٠)

رأي الفرقة الثانية

تعتقد هذه الفرقة أن الله، تعالى ذكره، كان (قبل خلقه الأشياء، لا شيء يماسّه، ولا شيء يُباینه، ثم خلق الأشياء، فأقامها بقدرته، وهو، كما لم يزل، قبل خلقه الأشياء، لا شيء يماسّه، ولا شيء يُباینه، فعلى قول هؤلاء أيضاً، سواء أقعدّ محمداً، صلى الله عليه وسلم، على عرشه، أو على أرضه إذ كان، سواء على قولهم : عرشه وأرضه، في أنه لا مماسّ، ولا مباين لهذا، كما أنه لا مماسّ، ولا مباين لهذه" (٧١).

رأي الفرقة الثالثة:

تعتقد هذه الفرقة أن الله، تعالى ذكره، كان " قبل خلقه الأشياء لا شيء يماسّه، ولا شيء يُباینه، ثم أحدث الأشياء وخلقها، فخلق لنفسه عرشاً استوى عليه جالساً، وصار له مماساً، كما أنه قبل خلقه الأشياء، لا شيء يزرّقه رزقاً، ولا شيء يحرمه ذلك، ثم خلق الأشياء، فرزق هذا، وحرم هذا، وأعطى هذا، ومنع هذا.

قالوا : فكذلك كان قبل خلقه الأشياء، لا شيء يماسّه، ولا يُباینه، وخلق الأشياء، فماسّ العرش بجلوسه عليه، دون سائر خلقه، فهو مماسّ ماثلاً من خلقه، مباين ماثلاً منه.

فعلى مذهب هؤلاء أيضاً، سواء أقعدّ محمداً على عرشه، أو أقعده على منبر من نور، إذ كان - من قولهم _ أن جلوس الرّب -
رش، ولا في إقعاد محمّد
صلى الله عليه وسلم، موجباً له صفة الربوبية، ولا مخرجه من صفة العبودية لرّبه، كما أن مباينة محمد، صلى الله عليه وسلم، ما كان مبايناً له من الأشياء ، غير موجبة له صفة الربوبية، ولا مخرجته من صفة العبودية لرّبه من أجل أنه موصوف بأنه له مباين، كما أن الله، عزّ وجلّ، موصوف على قول قائل هذه المقالة بأنه مباين لها، كما هو مباين له.

قالوا : فإذا كان معنى (مباين) و (مباين) لا يوجب لمحمد، صلى الله عليه وسلم، الخروج من صفة العبودية، والدخول في معنى الربوبية، فكذلك لا يوجب له ذلك قعوده على عرش الرحمن...." (٧٣).

رأي الطبري الخاص

عرض الطبري ذلك بمنتهى الأمانة العلمية، وخلص إلى قوله يلخص ما أورده، ويعبر عن رأيه الذاتي بقوله: "فقد تبين إذاً، بما قلناه، أنه غير محال في قول أحد ممن ينتحل الإسلام ما قاله

مجاهد : من أن الله، تبارك وتعالى، يقعد محمداً على عرشه، فإن قال قائل : فإنّ لا ننكر إقعاد الله محمداً على عرشه، وإنما ننكر إقعاده معه" (٧٣).

لاحظ الطبري أهمية ما يورده من آراء، وخاصة المذهب الأخير، ورأى بشاقب بصيرته أن يوثق رأيه هذا بما أورده قبل من حديث عبد الله بن سلام بقوله:

" قال : إن محمداً، صلى الله عليه وسلم، يوم القيامة على كرسيّ الرب، بين يدي الرب تبارك وتعالى، وإنما يُنكر إقعاده إياه معه. قيل : أفجائز عندك أن يقعد عليه، لامعه ؟! فإن أجاز ذلك صار إلى الإقرار بأنه إمام معه، أو إلى أنه يقعد، والله للعرش مبين، أو لا مماس ولا مبين، وبأي ذلك قال كان منه دخولا في بعض ما كان ينكره.

وإن قال: ذلك غير جائز كان منه خروجاً من جميع الفرق التي حكينا قولهم؛ وذلك فراق لقول جميع ينتحل الإسلام، وإذا كان لا قول في ذلك إلا الأقوال الثلاثة التي حكيناها، وغير محال في قول منها ما قال مجاهد في ذلك" (٧٤).

هكذا ناقش الطبري قضية جلوس محمّد (ص) على عرش الله، عزّ وجلّ، في هذا المقام المحمود، ورأى أن جماعة المذهب الثاني، وهم أصحاب مجاهد، قد قالت : إن الله يقعد محمداً (ص) على عرشه، وعلق الطبري على ذلك، فذكر أن هذا القول غير مدفوع صحته، لا من جهة النظر، ولا من جهة الخبر .

لم يكتف الطبري بعرض ذلك كلّ، وإنما دقّق وتعمّق في هذا الرأي الأخير، وذكر - كما رأينا - ثلاث فرق، وناقش آراء كل فرقة على حدة، وهكذا ترك للناس حرية الاقتناع إيماناً منه بحرية الرأي والفكر في العقيدة والاجتهاد في المذهب .

مجلس الجمعة

كان مجلس الطبري العلمي في يوم الجمعة شؤماً عليه، وكان سبب محنته الكبرى، فلقد غير أسلوبه في المناقشة السابقة، ذلك لأنه أصرّ أمام مناظريه من الحنابلة والمحدثين على أن الجلوس على العرش، والقعود مع الله حرام، وهذا نابع من إيمانه أن محمداً (ص) بشر مثلكم، وينبغي أن يعطيه صفة الربوبية، إيماناً منه بالعبودية المطلقة لله الواحد الأحد، والفرد الصمد الذي (لم يلد، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) .

اهتم بعض المفسرين بالجانب اللغوي، بالإضافة إلى الجانب الاصطلاحي، نشير مثلاً إلى الإمام الطبرسي (أمين الدين، أبو علي، الفضل بن الحسن بن الفضل، المتوفى سنة ٥٤٨ هـ)، وهو المفسر اللغوي المحقق، ومن أجلاء الإمامية، وقد شرح مفهوم (المقام المحمود) بقوله: " والمقام بمعنى (البعث) فهو مصدر من غير جنسه أي: يبعثك يوم القيامة بعثاً أنت محمود فيه، ويجوز أن يُجعل (البعث) لمعنى الإقامة أي : أثرته وأقمته، فيكون معناه : يقيمك ربك مقاماً يحمدك فيه على جميع الخلائق، تسأل فتعطي، وتشفع فتشفع...." (٧٥).

واستطرد فذكر أن (المقام المحمود) وهو مقام الشفاعة، هو المقام الذي يَشْفَعُ فيه للناس، وهو المقام الذي يُعطى فيه لواء الحمد، فيوضع في كفه، تجتمع تحته الأنبياء والملائكة، فيكون أول شافع وأول مشفع.. (٧٦)

كما اعتمد المفسرون المحدثون على ما فسره السابقون في هذا الموضوع جملةً وتفصيلاً، وقد استرعى انتباهي الاتجاه اللغوي في تفسير (المقام المحمود) وفيه كثير من التشابه، فقد ذكر أنه "من الممكن أن يكون مصدراً ميمياً، وهو البعث، فيكون مفعولاً مطلقاً لـ (يبعثك) من غير لفظه والمعنى: عسى أن يبعثك ربك بعثاً محموداً

ومن الممكن أن يكون اسم مكان، والبعث بمعنى الإقامة، أو مضمناً معنى الإعطاء ونجوه، والمعنى: عسى أن يقيمك ربك في مقام محمود أو يبعثك معطياً لك مقاماً محموداً أو يعطيك باعثاً".

والملاحظ في هذا القول هذا الاهتمام بالتفسير اللغوي كما رأينا عند الطبرسي واستخدام التأويل في التضمنين اللفظي، ولكن الطباطبائي لم يخرج في التفسير المعنوي عما ورد عند السابقين، وهذا يتضح في قوله:

"وقد وصف، سبحانه، مقامه بأنه محمود، وأطلق القول من غير تقييد، وهو أنه مقام يحمده الكل، ولا يثني عليه الكل إلا إذا استحسنته الكل، وانتفع به الجميع ولذا فسروا (المقام المحمود) بأنه المقام الذي يحمده عليه جميع الخلائق، وهو مقام الشفاعة الكبرى له، صلى الله عليه وسلم، يوم القيامة وقد اتفقت على هذا التفسير الروايات من طريق الفريقين، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وأئمة البيت، عليهم السلام..." (٧٧).

ولا بد لنا، بعد هذا العرض المسهب، من الإشارة الختامية إلى تفسير معنى (المقام المحمود) لغوياً واصطلاحياً، من إيراد الملاحظات التالية إجمالاً لما أوردناه من سابق القول:

١- يعتقد الإمام الطبري أن (المقام المحمود) خاص بالشفاعة الكبرى وحدها، وهو المذهب الأول الذي أجمع عليه جمهور المفسرين جميعاً، وهو ما صح به الخبر، وهو أولى القولين بالصواب.

٢- لم يرفض الطبري المذهب الثاني، وهو رأي مجاهد وجماعته، ذلك لأنه يعتقد أن إبعاد النبي محمد (ص) على العرش غير مدفوع صحته، لا من جهة الخبر، ولا من جهة النظر.

٣- صنف الطبري المذهب الثاني، وجعله في ثلاث فرق، وعرض آراءها، وأيدما أوردته أئمتها، لكنه توقف عند الفرقة الثالثة من فرق المذهب الثاني، وهي التي تعتقد أن محمداً (ص) مع الله، أو أنه يقعد، والله للعرش مبين، لا مماس، ولا مبين، وعد هذا التفسير مخالفاً لجميع الفرق السابقة التي أورد أقوالها، وغير محال هنا ما قاله مجاهد في ذلك.

٤- لم ينقل العلماء من المحدثين والحنابلة من أخبار المناظرة الطبرية، في مجلس الجمعة، حيث كان يدرس، إلا رأيين مجملين:

أولهما: رأي الطبري في أحمد بن حنبل، وهو رأيه الخاص به.

ثانيهما : قول الطبري: "وأما حديث العرش فمحال".

ومن الطبيعي أن يعرض الطبري آراءه التي أوردها في تفسيره الكبير المشهور، يَبْدُ أننا لا نعرف بالتالي آراء العلماء والمحدثين في هذه المناظرة التاريخية المحترمة التي كانت سبب محنته الكبرى.

ومن المؤكد عندنا أن الطبري، كما عرفناه، صحيح العقيدة، صادق الإيمان، لكنه كان صلب الرأي، لا يتزحزح عما يؤمن به ويعتقده، فكانت محنته الكبرى لموقفه الخاص من آراء الحنابلة الذين حاربوه وألبوا عليه " عوام الحنابلة ورعاعهم " كما نعتهم ودعاهم ابن كثير.

٥- ولا بد لنا من التوضيح والإشارة هنا إلى أن المقصود بالحنابلة هم طائفة من الحنابلة المتعصبة القائلة بالتجسيم، وهي التي رد آراءها في الفرقة الثالثة.

يؤكد ما نذهب إليه أن بعض المؤرخين الذين ترجموا له كالأذهبي وابن العماد الحنبلي، قد أثوا عليه كل الثناء، مشيدين بإيمانه وعلمه وفصله، يضاف إلى ذلك أن العلماء الحنابلة الذين أوربنا ذكرهم ممن اشتهروا في إثارة محنة الطبري ليسوا من العلماء الحنابلة الذين خلفوا لنا تصانيف يعتد بها، كما هي الحال عند العلماء الحنابلة المتأخرين المنصفين، فقد روي عن ابن تيمية أنه أثى عليه ثناء عطرأ، ونوه كثيراً بتفسيره الكبير (٧٨).

ويبدو أن هذين العالمين الجليلين ابن جرير الطبري وابن تيمية، على الرغم من تأخر ثانيهما زمنياً، قد جمعتهم المحنة العلمية وامتحنهما الله بسبب اجتهدهما، وكان إجماع الناس على فضايما وحبهما وتفضيلهما ما يجعل المحنة منحة وهبة إيمانية مطلقة .

اختلاف الفقهاء

هو الكتاب المخفي المدفون والمتبقي من (اختلاف الفقهاء) وهو الذي أخفاه الطبري، ودفنه في التراب خوفاً عليه من الضياع أو التمزيق، وذلك حين هوجم بسبب رأيه في (المقام المحمود).

ويرجع الفضل في نشر المشتت الباقي من هذا الكتاب إلى المشرق الألماني الدكتور (فريدريك كرن) الذي اهتم اهتماماً خاصاً، نظراً لأهميته بين آثار المؤلف، وكتب في إهدائه:

(إلى معلمي العزيز الشيخ جولدزهر المجري الأزهرى)

وصف (كرن) عمله في مقدمته الهامة بقوله: " نقلت نسخة المكتبة الخديوية بالقاهرة، من جامع محمد أفندي، الشهير بالكردي، وقد كانت سابقاً من ضمن الكتب التي وقفها الأستاذ جمال الدين محمود بن علي الظاهري في سنة ٧٩٧هـ على مدرسته التي أنشأها بالقاهرة" (٧٩).

وصف (كرن) هذه المخطوطة النادرة فذكر أنها ليس بها التاريخ نسخ معروف، إلا أن خطها

يشبه خطوط المائة الخامسة، وكتابتها هو الناسخ (محد بن أحمد بن إبراهيم الإمام) وهو غير معروف في كتب التراث، وقد تكرر اسمه في بعض خواتم كل قسم من أقسامه أكثر من مرة.

واستطرد المحقق المذكور وقال: "الموجود منها ١١٣ ورقة، وهي تحتوي على الكتاب (المدير ٨٠) وهو كراسان، إلا أنه فقد منه، بقي من الثاني الورقة الأولى والأخيرة فقط: كراس من كتاب (البيوع) كراسان فيهما آخر كتاب (الصرف)، وجميع كتاب (السلم). الكراس الأول من المزرعة والمساقاة، كتاب (الغصب) وهو كراسان إلا أنه بقي من الأول الورقة الأولى والأخيرة. كتاب (الضمان) إلا أنه فقد كراس من أوله " (٨١). كما أضاف (كرن) أن أحد العلماء أبلغه أنه رأى " جزء آخر في إحدى مكتبات القسطنطينية " (٨٢)

يضاف إلى كتاب (اختلاف الفقهاء) جزء آخر أو جزءان يتألف منهما كتاب آخر منسوب إلى الطبري أطلع عليه (كرن) في مكتبة عاشر أفندي بالقسطنطينية وهو كتاب (الجهاد والجزية)، ورجح أنه ربما كان جزءاً من كتاب (الاختلاف) أو (اللطيف) أو غيرهما.

لا نعرف فيما اطلعنا عليه من آثار الطبري وجود كتاب له باسم (اللطيف) ويبدو لنا، فيما اطلعنا عليه، أنه أحد أجزاء كتاب (الاختلاف)، أو جزءان من أجزائه، وهي بعنوان كتاب (الجهاد)، وكتاب (الجزية)، وهكذا يصبح كتاب (الاختلاف مؤلفاً من تسعة أجزاء أو تسعة كتب، كما اصطلاح الطبري على تسميتها في كتاب الأصل المدفون، وقد تكشف لنا الأيام بعض ما احتجب إن قلنا:

إن معظم الكتاب مفقود، فقد أخرج من التراب بعدما أخفاه الطبري يوم محنته الكبرى، وهذا بالطبع يؤدي إلى سقط وتلف في بعض أجزائه بسبب الرطوبة، يضاف إلى ذلك وجود خروم كثيرة في الكتاب وأجزاء مطموسة بسبب ذلك .

هذا كله يؤكد بما لا يدع مجالاً لأي شك أن بعض الكتاب أو أقله أو أكثره مفقود ذهبت به الأيام والأحداث ، والدليل على ذلك أن صاحب معجم (تاج العروس في شرح القاموس) مرتضى الزبيدي قد استدرك منه بابين في كتابه (إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار علوم الدين) للإمام الغزالي في شرحه الباب الأول من كتاب (النكاح) بقوله: " وقرأت في كتاب (اختلاف الفقهاء) ما نصّه... " (٨٣) وهو ملحق بالكتاب المطبوع نقلاً عن المصدر السابق المذكور.

هذا كله يؤكد لنا الحاجة الماسة إلى التفتيش عن مخطوطات هذا الكتاب الهام الذي نكب صاحبه ، ونكب به صاحبه، وضرورة جمع المتفرق منه في بواطن الكتب المخطوطة أو النقول منه من الكتب المطبوعة . وذلك لكي نكمل العمل العلمي القيم الذي بدأ به المستشرق الألماني (كرن).

مضمون (اختلاف الفقهاء)

من الفائدة أن نعرض مضمون كتاب (اختلاف الفقهاء) لبيان أهمية الموضوعات التي بحثها الطبري، وذكر بعض الملاحظات العلمية التي تسترعي الانتباه من خلال ما ورد فيه، بعد الاطلاع عليه.

الملاحظة الأولى أننا لم نجد خطبة المؤلف التي تشفع عادة في مطالعها بالبسملة والحمدلة والتصلية، وإنما اقتصر أحياناً على ما كتبه النساخ أو الطلبة في كل جزء من أجزائه حين الإملاء من قبل المؤلف عليهم، وقد يختتم أحياناً بذكر كاتبه النساخ (محمد بن أحمد إبراهيم الإمام). يتألف الكتاب من قسمين رئيسيين :

القسم الأول: يتضمن الموضوعات التالية : كتاب المدبر، وكتاب البيوع، وكتاب الصرف، وكتاب السلم، وكتاب المزارعة والمساقاة، وكتاب الغصب .

القسم الثاني: يتضمن كتاب الضمان، ولا سيما فيما يتعلق بالضمان والكفالة والحوالة . ولابد لنا من تفصيل ما أجمل، فقد تحدث فيه عن القول: في الكفالة بالمال إلى آخر الآجال، والقول: في الجماعة يضمنون عن رجل عليه التزام، والقول في أحكام الكفالة بالنفس، والقول: في الألفاظ التي تصح بها الكفالة وتلزم، و القول: في حكم الأموال، يأمر رجلاً أن ينقد رجلاً عنه مالا محدود المبلغ، والقول في كفالة العبد بنفس رجل لرجل، وضمانه له مالا له عليه، والقول في كفالة متكفل بنفس صبي، والقول: في كفالة العبد عن سيده،

والقول: في الكفالة عن المكاتب وكفالة المكاتب، والقول : في العبد يكون بين اثنين، والقول في كفالة أهل الذمة، والقول: في كفالة المرتد، والقول: في كفالة الحربي المستأمن، والقول : في حكم رجل يأمر بضمان، والقول: في حكم قبل رجلاً حقاً، والقول: في صلح الكفيل المكفول له في السلم عما كفل له. والقول : في حكم كفالة المريض والقول: في حكم الرجل يبيع الرجل سلعة إلى أجل، والقول : في حكم الكفالة عن مجهول لمجهول، والقول أخيراً: في الكفالة بالحيوان والعروض.

أبرز ما يلاحظ في هذه الأقوال من خلال عرض قضية كبرى واحدة هو العقل النير، وهذا العمق في التحقيق والتوثيق مما عُرف به الإمام الطبري، يضاف إلى ذلك بيان وجهة نظره في التعليق ومناقشة كل رأي من آراء العلماء والفقهاء الذين كان يستشهد بهم أو يُورد آراءهم موافقة أو مخالفة، وما كان عليه الإجماع عند الفقهاء، وعدم الإجماع عند بعضهم الآخر.

ويختتم ذلك ببيان قوله الفصل بصيغة المتكلم أو الجمع، ومن هنا تكمن عبقرية الطبري الفقهية، وأهمية القضايا الاجتماعية المدروسة، وبيان مضمونها، والرأي الفصل فيها.

كما لا حظنا من خلال ذلك كله أهمية هذه الظاهرة الاجتماعية والاقتصادية من منظور الشريعة والفقه، وهي شغل العالم الشاغل في العصر الحاضر.

إن هذه القضية الكبرى تهّم الناس جميعاً في كل زمان ومكان، ولدى سائر الأمم والشعوب في العالم كله، وقد خصّ المذاهب كلها من المسلمين وغيرهم .

منهج الطبري في الاختلاف

اعتمد الطبري في هذا الموضوع الهام على عقل ثاقب رشيد، ومنهج علمي سديد، يمكن أن ندعوه بـ (المنهج الطبري)، فاختار الأعلام من الأئمة المجتهدين من أصحاب المذاهب، أو التفرد

في بعض الآراء، ممن كانوا في نظره موثقين إمامة واجتهاداً ورواية ودراية، وقد أوردنا ذكرهم من قبل اعتماداً على ما أورده ياقوت، وقد استثنى منهم الإمام أحمد بن حنبل، ذلك لأنه لم يطلع على آراء له في الاختلاف، ولم يعرف من أصحابه من يعول عليه، ذلك لأنه في نظره، لا يعدو كونه أحد المحدثين الأعلام، وربما كان غير مطمئن إلى آرائه في الاختلاف، ومن الطبيعي أن يبعده من الاستشهاد به في كتابه هذا، وتلك هي حرية كل عالم يختار ما يوافقه رأياً واتجاهاً، ورأيه فيهم معروف كما رأينا .

كان حرص الطبري على إيراد القضايا الفقهية التي كانت موضع الجدل والنقاش والاختلاف بين أئمة المذاهب كبيراً جداً، وكان يعرض بموضوعية كاملة الآراء المستشهد بها، إجماعاً، أو اختلافاً، أو قياساً، أو اجتهداً، أو قوة، أو ضعفاً، كما كانت شخصيته بارزة كثيراً في حسم كثير من الآراء وذلك عن طريق القياس، أو بيان العلل، أو عدم صلاحها لمخالفتها المعقول من النصوص المأثورة .

ولا بد لنا من تبيان بعض شواهد في الاختلاف، منها قوله مثلاً: " وقالوا جميعاً غير مالك" (٨٤) و "أجمع العلماء جميعاً، لاختلاف بينهم " (٨٥).

كما كان يؤكد ويوثق نقوله وشواهد وآراءه بالاعتماد على إيراد العلل كما في قوله: " وعلة من قال..... " (٨٦)، تكررت أربع مرات في صفحتين اثنتين فقط، و " علة من يقول.... " (٨٧)، و " علة القائلين... " (٨٨) . وما أشبه ذلك من هذه الاصطلاحات والتعابير المعروفة عند العلماء والفقهاء.

كما كان يختتم بعض القضايا المعروضة ببعض تعابير المأثورة الخاصة به، والمعروفة عند النساخ وطلابه ومريديه من مثل قوله:

" والصواب من القول في ذلك عندنا... " (٨٩)، و " هذا الذي قالوا في ذلك عندي كما قالوا... " (٩٠). و ".... بالذي قلنا في ذلك قال أبو حنيفة وأصحابه... " (٩١).

يضاف إلى ذلك التعابير الختامية المأثورة والمتشابهة والمتكررة بشكل أو بآخر، كما في استخدام التعبير الختامي المأثور عن الطبري في مجالسه العلمية لدى طلابه وغيرهم : " قال أبو جعفر: (والحق في ذلك عندي، وبالله التوفيق)... " (٩٢)، وقد تكرر خمس مرات تقريباً، وذلك لبيان وجهة نظره واجتهاده، فيما يعرضه، أو يعرض عليه، أو يعرض له من مسائل فقهية أو تفسيرية أو توضيحية هي موضع الخلاف والنقاش في الأحكام والآراء.

ومن المأثور عند النساخ والنقلة مما يمليه الطبري أنه كان يختتم الموضوع المطروق بهذا التعبير التقليدي وربما كان، فيما نرجحه، من إضافة النساخ، أو من تعليق طلابه، وهو هذا التعبير المعروف في الترسل البياني بشكل عام النثر العربي القديم : " تم كتاب (.....) والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد، وعلى آله الطيبين، وكتب محمد بن أحمد بن إبراهيم الإمام" (٩٣).

وقد يختلف الختام بعض الاختلاف بالزيادة أو النقص أو التعديل، كما في هذا التعبير الختامي الآخر: "تم كتاب (الصرف)، والحمد على محمد وآله، وسلم كثيراً" (٩٤).

مهما يكن من أمر هذا كله، فإن الطبري قد تفرّد كما وضّحنا بمنهج علمي سديد خاص به، وقد لاحظنا أنه قد طبّقه في مؤلفاته، سواء أكان في الفقه أم التفسير، ولا سيّما في كتب الاختلاف. والملاحظ أنه وضع لنفسه أصول مذهب خاص به، وقد أشار إليه المستشرق (كرن) في تقديمه لكتابه في الاختلاف، ونعته بالمذهب الجريري، بيد أن هذا المذهب لم يستمر طويلاً بعد موت صاحبه.

قال ابن فرحون المالكي في (الديباج المذهب): "وأما أصحاب الطبري وأبي ثور فلم يكثرُوا، ولا طالت مدتهم، وانقطع أصحاب أبي ثور بعد ثلاثائه، (وأصحاب الطبري) بعد أربعمائه..". (٩٥).

والمعروف أن الفرغاني من أهم رواة الطبري وأشهرهم، وقد تحدّث عنه بقوله: "فلما اتسع علمه أذاه اجتهداه وبحته إلى ما اختاره في كلّ صنف من العلوم في كتبه، إذ كان لم يسعه فيما بينه وبين الله تعالى، عزّ وجلّ إلا الدينونة بما أذاه اجتهداه إليه، فيما لم ينصّ عليه من يجب التسليم لأمره، فلم يأل نفسه والمسلمين نصحاً وبيّناً فيما صنّفه" (٩٦).

والمعروف أن الطبري قد أظهر فقه الشافعي، وتبنّاه، وأفتى به في بغداد عشر سنين، وقد تجاوز ذلك فأفتى بما يمكن أن نعدّه تطوراً واجتهاداً نحو مذهب جريري طبري خاص به، ذلك لأنه أنس في نفسه وعلمه ما يسوّغ له ذلك اجتهداً خاص، فكان بذلك صاحب المذهب الجريري، بيد أنه لم يكتب له الانتشار، وإنما زال بعد مرور الزمن على وفاته.

أشار الفرغاني إلى أن الإمام الطبري صنّف كتابه الهام: (لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام)، وهو مذهبه الذي اختاره وجوّده واحتجّ له، وقد طوته الأيام والسنون.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الطبري كان - بالإجماع - عند أهل الطبقات إماماً مجتهداً مطلقاً، تفرّد بتصانيف ذات أهمية كبرى في الفقه والتفسير والتاريخ، وأنه كان حقاً، كما يقول القفطي، "واحد الدهر، وفريد كل عصر" (٩٧). ومن هذا المنطلق كان مصدر هذه المحنة الكبرى التي أصابته في حياته ومن أسباب مماته، لأن المعاصرة حجاب، ولكن الحقيقة وحدها تبقى مشرقة مدى العصور والدهور.

المصادر والمواضع

- (١) مصادر ترجمته وأخباره : معجم الأدباء لياقوت ٤٠/١٨، و ٥٧/١، و ٥٨، و ١٣/٤-١٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٢/٢٠٥، وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢/٢٥١-٢٥٤، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣/٣٢٢، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣/١٢٠-١٣٠، ومفتاح السعادة ١/٢٠٥ و ٢١٥ والبداية والنهاية لابن كثير ١١/١٤٥، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٨/١٣٤-١٣٦، وشذرات الذهب لابن العماد ٢/٢٦٠، وميزان الاعتدال للذهبي ٣/٤٩٨، ٤٩٩ ولسان الميزان لابن حجر ٥/١٠٠، وتاريخ بغداد ٢/١٦٢، المحمديون ص ٢٦٣، ومقدمة المرحوم محمد أبو الفضل إبراهيم لتاريخ الطبري ١/٥-٣٣ ومقدمة كرن لكتاب الطبري (اختلاف الفقهاء) ٣-٢٣، والأعلام للزركلي ٦/٢٩٤، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٥/١٦
- (٢) المحمديون ٢٦٣، وقد وضع مؤلفه القفطي كتاباً مستقلاً في حياته بعنوان (التحرير لأخبار ابن جرير) وذكر " أنه كتاب فريد في نوعه".
- (٣) معجم الأدباء ٤١/١٨
- (٤) المصدر السابق ٤٠/١٨
- (٥) المصدر السابق ٤٠/١٨
- (٦) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٠
- (٧) المصدر السابق ٣/١٢٠
- (٨) البداية والنهاية ١١/١٤٦، ١٤٧
- (٩) المصدر السابق ١١/١٤٦
- (١٠) المصدر السابق ١١/١٤٧
- (١١) معجم الأدباء ٣/٨٣ و ٤٣/٨٣
- (١٢) معجم البلدان ١/٥٧، ٥٨
- (١٣) في اللسان عن ابن الأعرابي (مادة طير) والمعنى : قفز أو اختبأ، ومعنى (طبار) الداهية، و (الطبار) ضرب من التين، وهو أكبر تين رآه الناس.
- (١٤) معجم البلدان ١/١٤-١٦
- (١٥) معجم الأدباء ١٨/٨٠
- (١٦) المصدر السابق ١٨/٨٨، ٨٩
- (١٧) شذرات الذهب لابن العماد ٢/٢٦٠
- (١٨) معجم الأدباء ١٨/٤١
- (١٩) تقديم تاريخ الطبري ١/١٥-١٩
- (٢٠) ذكر صديقي المرحوم أبو الفضل إبراهيم أن " حرقوص بن زهير السعدي كان صحابياً، ثم كان مع علي (رض) بصفتين فصار خارجياً عليه، وقتل، وربما كان في ذلك تفسير للكتاب " المقدمة ص ١٨
- (٢١) ذكر ياقوت أن الطبري رذ فيه على داود بن علي الأصفهاني.
- (٢٢) أو شرح السنة.
- (٢٣) ألف ثلاثة كتب في الفضائل : فضائل علي بن أبي طالب، وفضائل أبي بكر وعمر ولم يتقه، وفضائل العباس، ولم يتقه .
- (٢٤) معجم البلدان ٢/٣٨٩ (مادة خم)
- (٢٥) المصدر السابق ٢/٣٨٩
- (٢٦) القاموس المحيط (مادة خم)
- (٢٧) الروض المعطار للحميري ص ١٥٧ مادة (جحفه) و (خم).
- (٢٨) معجم الأدباء ١٨/٧٤
- (٢٩) مقدمة اختلاف الفقهاء ص ١١
- (٣٠) معجم الأدباء ١٨/٧٤
- (٣١) المصدر السابق ١٨/٧٤
- (٣٢) المصدر السابق ١٨/٨٤، ٨٥
- (٣٣) سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٧
- (٣٤) معجم الأدباء ١٨/٨٤، ٨٥
- (٣٥) البداية والنهاية ١١/١٤٧ ومقدمة اختلاف الفقهاء نقلاً عن تاريخ البرزالي ص ١٠
- (٣٦) المصدر السابق

- (٣٧) الفهرست لابن النديم ص ٤٩١
 (٣٨) المصدر السابق ص ٤٩١ . توجد نسخة خطية من هذا الكتاب في برلين رقم ٤١٥٥ كما ورد في تقديم تحقيق الفهرست .
 (٣٩) معجم الأدباء ١٨/٧١، ٧٢
 (٤٠) المصدر السابق ١٨/٧١، ٧٢
 (٤١) أبو علي، محمد بن عيسى (المتوفى سنة ٢٩٣هـ).
 (٤٢) معجم الأدباء ١٨/٥٧-٥٩
 (٤٣) المصدر السابق ١٨/٦٠-٦١
 (٤٤) المصدر السابق ١٨/٥٩
 (٤٥) ميزان الاعتدال ٣/٤٩٨، ٤٩٩، ولسان الميزان ١٠٠/٥
 (٤٦) المصدران السابقان
 (٤٧) في الأصل (نبرأ) والصواب ما أثبت أي لُقّب، والنَّبَرُ (بفتحتين) اللقب والجمع (الأنباز)، ونيزه أي لقيه، وتنايزوا بالأنقاب أي لُقّب بعضهم بعضاً، كما في الصحاح ومختارده.
 (٤٨) لسان الميزان ١٠٠/٥
 (٤٩) المصدر السابق ١٠٠/٥
 (٥٠) المصدر السابق ١٠١/٥
 (٥١) سورة البقرة ٢/٢٥٥
 (٥٢) سورة ص ٣٨/٣٤
 (٥٣) سورة الإسراء ١٧/٧٩
 (٥٤) تفسير الطبري ١٥/٩٥
 (٥٥) المصدر السابق ١٥/٩٦
 (٥٦) المصدر السابق ١٥/٩٦
 (٥٧) المصدر السابق ١٥/٩٦
 (٥٨) المصدر السابق ١٥/٩٦
 (٥٩) المصدر السابق ١٥/٩٦
 (٦٠) المصدر السابق ١٥/٩٦
 (٦١) المصدر السابق ١٥/٩٦
 (٦٢) المصدر السابق ١٥/٩٦
 (٦٣) المصدر السابق ١٥/٩٦
 (٦٤) المصدر السابق ١٥/٩٧
 (٦٥) المصدر السابق ١٥/٩٨
 (٦٦) المصدر السابق ١٥/٩٨
 (٦٧) المصدر السابق ١٥/٩٨
 (٦٨) المصدر السابق ١٥/٩٨
 (٦٩) المصدر السابق ١٥/٩٨
 (٧٠) المصدر السابق ١٥/٩٩
 (٧١) المصدر السابق ١٥/١٠٠
 (٧٢) المصدر السابق ١٥/١٠٠
 (٧٣) المصدر السابق ١٥/١٠٠
 (٧٤) المصدر السابق ١٥/١٠٠
 (٧٥) جمع البيان في تفسيره القرآن ٣/٤٣٤، ٤٣٥
 (٧٦) الميزان في تفسير القرآن ١٣/١٧٥
 (٧٧) المصدر السابق ١٣/١٧٦
 (٧٨) معجم الأدباء ١٨/٥٧-٥٩
 (٧٩) شذرات الذهب ٢/٢٦٠ روى الخطيب عن أبي حامد الإسفرائيني أنه قال : " لو سافر رجل إلى الصين حتى ينظر في كتاب (تفسير ابن جرير الطبري) لم يكن ذلك كثيراً " . (البداية والنهاية ١١/ ١٤٦ وشذرات الذهب ٢/٢٦٠)
 (٨٠) مقدمة الكتاب ص ٦ ذكر المستشرق (كرن) أن المخطوطة من نسخة في المدينة المنورة .
 (٨١) المصدر السابق ص ٧٦
 (٨٢) المصدر السابق ص ٧
 (٨٣) المصدر السابق ص ٤
 (٨٤) إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار علوم الدين للإمام الغزالي للزيدي (طبعة مصر) ٥/٣٠٦ و (طبعة فاس) ٦/٢٨٥
 (٨٥) المصدر السابق ١/١١١
 (٨٦) المصدر السابق ١/١١١
 (٨٧) المصدر السابق ١/١١٧
 (٨٨) المصدر السابق ١/١٢، ٢٧ و ٢/٨٢
 (٨٩) المصدر السابق ١/١٨
 (٩٠) المصدر السابق ١/١٨
 (٩١) المصدر السابق ١/٤٦، ٦٨، ١١٣ و ٢/٨٥
 (٩٢) المصدر السابق ٢/١١
 (٩٣) المصدر السابق ١/٦٣
 (٩٤) المصدر السابق ١/٦٥
 (٩٥) المصدر السابق ١/٤٩
 (٩٦) مقدمة الاختلاف ص ١٥

(٩٧) المحمدون ص ٢٦٣

فهرس المصادر والمراجع

- ١١- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي
تحقيق محمود محمد الطناجي وعبد الفتاح محمد
الحو
مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٤ م
- ١٢- غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري
تحقيق ج برجستراسر . طبع مكتبة الخانجي
بمصر الطبعة الأولى ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م .
الطبعة الأولى .
- ١٣- الغدير لعبد الحسين أحمد الأميني النجفي
دار الكتاب العربي . الطبعة الخامسة ١٤٠٣ هـ
١٩٨٣ م .
- ١٤- الفهرست لابن النديم
تحقيق الدكتور ناهد عباس عثمان . دار قطري
بن الفجاءة ١٩٨٥ م
- ١٥- الكامل في التاريخ لابن الأثير
دار صادر ودار بيروت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م
- ١٦- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون
لحاجي خليفة الطبعة الثالثة . المكتبة الإسلامية
بتهران ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ١٧- لسان الميزان لابن حجر العسقلاني
مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية . الهند .
حيدر آباد الدكن ١٣٢١ هـ .
- ١٨- مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي
مطبعة العرفان . صيدا ١٣٥٥ هـ / ١٩٣١ م
- ١٩- المحمدون من الشعراء وأشعارهم
تحقيق رياض عبد الحميد مراد . مطبعة الحجاز
بدمشق . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق
١٣٦٥ هـ / ١٩٧٥ م .
- ٢٠- مختصر تفسير ابن كثير لعقاد الدين بن كثير
- ١- اختلاف الفقهاء للطبري .
تحقيق المستشرق الدكتور فريد يرك كرن ،
الطبعة الأولى ،
طبع مطبعتي الموسوعات والترقي بمصر
١٣٢٠ هـ / ١٩٠٢ م
- ٢- الأعلام لخبر الدين الزركلي ،
الطبعة الثانية بيروت ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م
- ٣- البداية والنهاية لابن كثير .
الطبعة الأولى . مكتبة المعارف . بيروت
١٩٦٦
- ٤- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ،
دار الكتاب العربي . بيروت
- ٥- تاريخ الطبري لابن جرير الطبري
الطبعة الثانية . تحقيق المرحوم محمد أبو الفضل
إبراهيم دار المعارف بمصر . ١٣٨٧ هـ
١٩٦٧ م
- ٦- تفسير الجلائين لجلال الدين المحلي وجلال
الدين السيوطي .
مطبعة الاستقامة بالقاهرة .
- ٧- تفسير الطبري لابن جرير الطبري
المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق ١٣٢٤ هـ
- ٨- الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري
تحقيق الدكتور إحسان عباس - مكتبة لبنان
الطبعة الثانية ١٩٨٤ م
- ٩- سير أعلام النبلاء للذهبي
مؤسسة الرسالة . الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ
١٩٨٣ هـ
- ١٠- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن
العقاد الحنبلي
المكتبة التجارية للطباعة والنشر - بيروت

- ٢٦- الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي
الطبعة الثالثة . مؤسسة الأعلمي . بيروت
١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م.
- ٢٧- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
لابن تغري بردي.
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م.
- ٢٨- الوافي بالوفيات للصفدي
تحقيق ي . يدرينغ الطبعة الثانية . دار نشر
فرانز شتانيير بفرسبادن ١٩٧٤ م
- ٢٩- وفيات الأعيان لابن خلكان
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مكتبة النهضة
المصرية ١٩٤٨ م.

- اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني . الطبعة
الرابعة . بيروت دار القرآن الكريم ١٤٠١ هـ .
- ٢١- معجم الأدباء لياقوت الحموي (إرشاد الأريب
لمعرفة الأديب)
دار المأمون ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م
- ٢٢- معجم البلدان لياقوت الحموي
دار صادر، ودار بيروت ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م
- ٢٣- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة
مطبعة الترقى . دمشق ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م
- ٢٤- مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبري
زادة حيدر آباد ١٣٥٦ هـ
- ٢٥- ميزان الاعتدال للذهبي
تحقيق محمد علي البجاوي. دار إحياء الكتب
العربية ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م